الفصل الرابع
الوجود العثماني في المشرق العربي
بين الاحتلال والفتح

- العثمانيون والصراع مع الصفويين والمماليك
- السلطان سليمان القانوني ٩١٢ ـ ٩٥٥ هـ / ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م
- جهود العثمانيين في نشر الإسلام في شرق أوربا
- العثمانيون وحركة الجهاد الإسلامي في البحر المتوسط
- العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربي الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

العثمانيون والصراع مع الصفويين والمماليك

فى الوقت الذى اتجه فيه أغلب الكتاب والمؤرخين من أصحاب المنظور القومى إلى اعتبارالتدخل العثمانى فى المشرق العربى فى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى السادس عشرالميلادى غزوا واحتلالاً اتجه بعض المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامى إلى اعتباره فتحاً . ومع أن مفهوم أو مصطلح الفتح لم يستخدم من قبل إلا فى دخول جيش إسلامى لأراض غير إسلامية إلا أنهم رأوا أن التدخل العثمانى لم يكن دافعه التوسع أو السيطرة وإنما كان ضرورياً لحماية المسلمين من مخطط غربى صليبى قادته البرتغال(١) وأنه لولا هذا التدخل وهذه الحماية لتغير وجه التاريخ الإسلامى فى هذه المنطقة ، ولفقدت ترابطها واستمرار تراثها الذى يعد من أهم مقومات وحدتها المعاصرة .

وساق المؤرخون القوميون وغيرهم العديد من الأسباب التى تؤكد . أو تبرر . وجهة نظرهم فذكروا أن الفتح العثمانى على الساحة الأوربية كان قد وصل إلى مرحلة من التشبع أو إلى أقصى مدى يستطيعه ، وأن القوات العثمانية قد أصبحت فى موقف دفاعى لا فى موقف هجومى مما دعاها إلى التوقف عن مواصلة الزحف على هذه الساحة (٢) واستتبع ذلك بالضرورة . من وجهة نظرهم . عودة ثقل هذه القوات إلى الساحة الشرقية للتصدى للمشكلات الحدودية مع الصفويين والمماليك ، ثم رأت أن الفرصة سانحة أمامها .

---

(١) حاول البعض ، بقصد أو بغير قصد ،إطلاق مصطلح الفتح على بعض التوسعات الإستعمارية مما جعل المصطلح يفقد معناه الإسلامى ، كأن يصف البعض دخول محمد على للسودان أو الشام أو الجزيرة العربية بالفتح ، أو حتى استعمار الدول الأوربية لبعض مناطق فى آسيا وإفريقيا .

(٢) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ص ١٠٢ .
لتحقيق الأطماع التى راودت بعض السلاطين العثمانيين والمتمثلة فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط وحتى يصبح بحيرة عثمانية .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أنه قد تهيأت بعض الأسباب التى أسهمت فى صبغ الدور العثمانى بالصبغة الإسلامية يأتى فى مقدمتها تصديهم للأطماع البرتغالية فى البحر الأحمر وبحر العرب ، فضلاً عن نجاحهم فى وقف نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط ، وأنه بغض النظر عن دافعهم فى التصدى لهذه القوى إلا أن موقفهم تجاهها كان ضرورياً لتحقيق أهدافهم فى التوسع فى الشرق العربى ، وأنهم قد نجحوا فى استثمار هذا النجاح باسم الدين الذى أسهم فى خضوع هذه المنطقة لهم على مدى أربعة قرون أو يزيد .

وبداية فإن هناك أدلة عديدة تؤكد أن وقف العثمانيين لفتوحاتهم فى أوروبا فى عهد "السلطان سليم الأول" وعودتهم إلى المشرق ترجع فى المقام الأول إلى عامل رئيسى هو التصدى للهجوم الصليبى البرتغالى على الأراضى والمقدسات الإسلامية فى المشرق العربى وحصار نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك وقف الخطر الصفوى الذى استشرى وأصبح يشكل خطراً سياسياً عليهم ، فى حين أن العوامل الأخرى المتمثلة فى ضعف القوات العثمانية على الساحة الأوروبية وكذلك رغبة العثمانيين فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يكون جناحها الشرقى هو المشرق العربى لا تستند إلى دليل تاريخى .

ومن جهة أخري فقد أندفع الأسبان والبرتغاليون بروح دينية صليبية متعصبة ضد الشرق الإسلامى حيث أغرتهم إنتصاراتهم الدينية على المسلمين فى الأندلس ونجاحهم فى طرد المسلمين منها ، ولقى اتجاههم هذا تأييدا من البابوية فى روما بنفس القدر الذى أثارت به حماسهم طوال حربهم فى الأندلس . ونجحت القوات الأسبانية والبرتغالية فى احتلال العديد من المراكز والموانىء الساحلية فى الشمال الإفريقى مثل " سبته ومليلة

وطنجه وأصيلا ووهران ... وغيرها "، ووضعت خططها للإجهاز على بقية هذا الساحل والوثوب منه إلى مصر ثم الجزيرة العربية حيث مقدسات المسلمين ، وارتفعت الشعارات الحماسية الداعية إلى العمل على إعادة المسلمين إلى صحراء العرب التى انطلقوا منها .

بل وذهبت هذه الشعارات إلى حد المناداة بنبش قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة وهدم الكعبة فى مكة وإنهاء الوجود الإسلامى من أساسه(١)، لكن هذه المخططات قد واجهت صعوبات شديدة بسبب حركة الجهاد الإسلامى المتمثلة فى دور الأخوين "عروج وخير الدين بربروسا " فى البحر المتوسط تلك الحركة التى لقيت دعماً قوياً من الدولة العثمانية مما أسهم فى استمرار صمودها وتقويتها وإستعادتها لعدة مراكز من القوات الأسبانية والبرتغالية .

وأدى هذا – مع عوامل أخرى – إلى تحويل مسار الدور الأسبانى إلى الغرب بدوافعه الاقتصادية والدينية عبر المحيط الأطلسى ، ودفع الدور البرتغالى إلى الإلتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الشرق الإسلامى وهو ما عرف خطأ باسم حركة الكشوف الجغرافية .

وقد تأكدت حقيقة الدور البرتغالى من خلال العديد من المسلمين واليهود الفارين من الأندلس حيث قدموا للسلطان العثمانى الخطط التى وضعها البرتغاليون لتنفيذ مخططاتهم العدائية ضد مقدسات المسلمين مدعومة بالخرائط ، وتضمنت هذه المخططات ما يشير إلى تقارب صفوى برتغالى يوضح أطماع الصفويين فى المشرق الإسلامى واتجاههم المعادى للدولة العثمانية (٢) .

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ٣، ص٦٩٨ .:د. صلاح العقاد : السابق ص١٥ .

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص٨٣،٨٣.

ومما زاد من تأكد العثمانيين من صدق هذه المخططات مسيرة الأحداث نفسها ففى الوقت الذى تدخلت فيه القوات الصفوية واحتلت العراق (٩١٣هـ/١٥٠٦م) ثم ازداد نفوذهم فى الشام والحجاز كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل فى مهاجمه المشرق الإسلامى فاصطدموا بالمماليك وهزموهم فى معركة " ديو البحرية "(٩١٤هـ/١٥٠٩م) (١)

وبعد عدة أشهر من هذه المعركة تمكن شريف مكة " الشريف بركات " من القبض على ثلاثة من الجواسيس البرتغاليين داخل مكة ٩١٥ هـ / ١٥١٠م) وتعرّف الشريف منهم على ما يؤكد عزم بلادهم على الإعتداء على المناطق المقدسة ، فأرسلهم إلى السلطان المملوكى فى مصر " قنصوه الغورى " كى يقف بنفسة على حقيقة الأمر (٢) .

وفى هذه الفترة كان البرتغاليون قد وصلوا إلى مدخل البحر الأحمر وحاولوا الاستيلاء على عدن ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك فاستولوا على الجزيرة "سومطرة " (٩١١هـ/١٥٠٦م) ، واستعملوا العنف والحرق ضد السفن والمدن الإسلامية ، ولم تنجح القوى المملوكية فى مواجهه هذا الخطر (٣) ، وحاول البرتغاليون إحتلال ميناء جدة والوصول إلى المدن المقدسة عدة مرات لكن العواصف حالت دون وصول سفنهم إلى المنطقة(٤) .

وفى جهة الشمال الإفريقى تمكن الأسبان من إحتلال ليبيا وتكوين العديد من الدويلات الصغيرة (٩١٥هـ / ١٥١٠ م) ، وأهدوا الكثير منها إلى فرسان القديس يوحنا

(١) د. بدر الدين الخصوصى : تاريخ الخليج العربى ، ص١٤ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٦٩٨.
(٣) قطب الدين النهروالى : أخبار مكة المشرفة ، ص ٣٨٤ .: د. فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ص ٣٧
(٤) د. جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر ، ص ٣٠٩ . ولا يميل المؤرخون بالطبع إلى استرجاع مقولة " عبد المطلب " جد النبى (ص) فى عام الفيل أن للبيت رب يحميه .

وتوالت انتصاراتهم برغم مقاومة حركة الجهاد الإسلامى ، وقد أدت هذه الأمور إلى استنجاد الكثيرين من أبناء هذه المنطقة بسلطان الدولة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية فى هذا الوقت لدرجة دعت قاضى " بجاية " وغيره من الفقهاء فيها أن يكتبوا إلى السلطان العثمانى قائلين :" إن بلادنا لك أو للذئب "(١) ، ولم يكن أمام السلطان العثمانى كممثل لدولة اعتبرت نفسها دولة إسلامية لا تقل عن الدولة الإسلامية الأولى التى قامت فى جزيرة العرب (٢) ، وأقامت كيانها السياسى الأول وكذلك كافة مراحل تطوره باسم الإسلام وتحت رايته إلا أن يوقف جهوده ـ مؤقتا ـ فى التوسع على الساحة الأوربية ويسرع إلى الشرق لترقب تطورات الموقف والإعداد لمواجهته.

ومع أن هذه العوامل التى تعرض لها المشرق الإسلامى قد مثلت دافعا ـ أو مبررا قويا ومقنعا للتدخل العثمانى إلا أن العثمانيين لم يخططوا لذلك أو يسعوا له ، فقد بادر السلطان العثمانى بمساندة الأسطول المملوكى بأسطول عثمانى شاركهم فى التصدى لهجوم فرسان القديس يوحنا الذين ساندتهم قوات برتغالية بالقرب من الإسكندرية (٩١٥هـ / ١٥١٠ م) ، وأرسلوا كذلك العديد من بناة السفن والبحارة للمساعدة فى إعادة بناء الأسطول المملوكى الذى تحطم فى معركة " ديو البحرية "وكذلك الأسلحة النارية المتطورة ، وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو تعضيد موقفهم للتصدى للهجوم البرتغالى (٣)

(١) د. عبد الكريم غرايبه : تاريخ العرب الحديث ، ص٣٦ .
(٢) د. عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ، ص ٥١. ؛ أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ص ٧٨ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ،ص١٩٦ .

ولم يقف الأمر بالسلطان العثمانى عند هذا الحد إدراكا منه لخطورة الموقف بل إنه قبل عرضاً مملوكياً بعقد حلف بينهما (٩١٨هـ / ١٥١٣م) يقضى بالتنسيق بينهما لمواجهة الخطرين البرتغالى والصفوى (١).

ولا شك أن ذلك التحالف قد أسهم فى إطمئنان العثمانيين تجاه المماليك وجعلهم يوجهون جهودهم للجبهة الصفوية التى كانت قد ازدادت خطورتها ، فقد فتح الشاه "إسماعيل الصفوى " بلاده للعديد من الثائرين والمتمردين على السلطان العثمانى من جهة وليكونوا فى مقدمة جيشه حين حدوث صدام كان متوقعا بينة وبين العثمانيين من جهة أخرى .

ومن الأمور التى دعت الشاه " إسماعيل الصفوى " لأن يوجه سياسته إلى العثمانيين فى الشمال دون الاهتمام بالمناطق الجنوبية والغربية فى الخليج العربى ، وهو أتجاه اتسمت به سياسته منذ بداية عهده ، أن البرتغاليين قد أبدوا تودداً كاملاً له بشكل طمأنة على سلامة أراضيه ، وكان البرتغاليون يهدفون من وراء تودهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم فى إيجاد مراكز لهم فى الخليج العربى . وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تهاون قوتهم مع القوى المحلية فى الخليج العربى قد يؤدى إلى فشل البرتغاليين فى تحقيق أهدافهم ولا سيما أن مشروعاتهم فى إيجاد مراكز نفوذ فى البحر الأحمر قد منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الصفويين فى رسالة أرسلها "البوكيرك " إلى الشاه " إسماعيل الصفوى " جاء فيها : إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند

(١) ابن إياس: المرجع السابق ، ص ٣٠٨ . ٣١١. ؛ د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٨٠

وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جدة أو فى عدن أو فى البحرين أو فى القطيف أو البصرة ، وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كل ما يريد"(١). وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالى الصفوى تقسيم المشرق العربى إلى مناطق نفوذ بينهما حيث اقتراح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين (٢).

ومن جهة أخرة كان الصفويون قد حاولوا عن طريق بعض العناصر الشيعية الموالية لهم والمنتشرة فى الأناضول القيام بثورة داخلية ضد الحكم العثمانى السنى وبالفعل تمكنوا من إشعال ثورة بزعامة " شاه قولى" فى نهاية عهد" بايزيد الثانى" أخمدها ابنه " سليم الأول" فى بداية توليه الحكم ، وقد أدى ذلك إلى اتخاذ " سليم " سياسة تتسم بالحذر تجاه العناصر الشيعية الموجودة فى بلاده ، وسعى لمحاصرة نشاطهم واضطهاد بعضهم اضطهاداً وصل إلى حد القتل ، ورد الصفويون على ذلك بإقامة مذابح جماعية للعناصر السنية الموجودة فى بلادهم ، ثم التحرش بالقوات العثمانية على الحدود ، وأدى ذلك إلى التقاء قوات الدولتين فى سهل" جالديران" (٩١٩هـ/ ١٥١٤م) وانتهت المعركة بانتصار القوات العثمانية إنتصاراً ساحقاً احتلت على أثره العاصمة الصفوية لبعض الوقت (٣). وقد دعت الأحداث فى مجملها لأن يحمل المؤرخ " أرنولد توينى" الجانب الصفوى مسئولية الصدام بين هاتين القوتين الإسلاميتين(٤).

(1) د .صلاح العقاد: المرجع السابق،ص١٧، د. بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ،ص١٨.
(٢) د. صلاح العقاد: المرجع السابق، ص١٧. ويبدو البعد الصليبى فى تركيز البرتغاليين على فلسطين.
(٣) د. محمد أنيس: المرجع السابق،ص١٠٦، د. أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ، ص ٧٩.
(٤) د. محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص١٠٧.

وقد أدت هذه الهزيمة إلى قبول الشاه" إسماعيل الصفوى" لعقد اتفاقية هرمز مع البرتغاليين أقر فيها الجانب الصفوى علي استيلاء البرتغاليين على هرمز فى مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى جانب تعهدهم بمساندتهم ضد القوات العثمانية(١) ، وأن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء "جوادر" على ساحل بلوشستان مقابل فتح "جوا " للتجار الصفويين (٢) .

وإذا كنا نتفق مع الدكتور" محمد أنيس " فى رفضه الأخذ بنظرية " أرنولد توينبى" القائلة بأن إدراك الصفويين والعثمانيين لعدم قدرة أى منهما لإحداث هزيمة كاملة بالآخر تؤدى إلى سيطرة أحدهم علىأراضى الآخر وإخضاعها لسيادته ، وأن ذلك الإدراك قد أسهم فى أنتقال الصراع بينهما إلى المناطق المجاورة فى المشرق العربى وسعى كل منهما للسيطرة عليه وهو أمر أدى إلى مهاجمه العثمانيين للشام ومصر والحجاز ،حيث كان بإمكان القوات العثمانية هزيمة القوات الصفوية هزيمة كاملة وإخضاع الأراضى الفارسية لسيطرتها بعد معركة " جالديران " ، إلا أننا نختلف مع الدكتور" أنيس" فى تفسير أسباب التدخل العثمانى فى الأراضى التى كانت خاضعة للمماليك حيث فسر ذلك برغبة العثمانيين فى التوسع على حساب هذه الأراضى من ناحية وإلى التسابق العثمانى البرتغالى على الإستيلاء على مفاتيح البحار العربية وهى البحر الأحمر والخليج العربى من ناحية أخرى .

فبقدر ما كان موقف العثمانيين تجاه الصفويين موقفاً دفاعياً . فى الغالب . وليس موقفاً هجومياً كما اتضح من مسيرة الأحداث ، فإن موقف العثمانيين تجاه المماليك كان

(١) د. بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ، ص٣٠ ويلاحظ أن القطيف كانت تعنى إقليم الإحساء كله
(٢) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص١٨.

كذلك . فقد سبق أن أوضحنا قيام العثمانيين بمساندة المماليك وإمدادهم بالعتاد والسلام لتقوية موقفهم أمام البرتغاليين ، ومساندتهم للأسطول المملوكى فى البحر الأحمر والعمل على إعادة بنائه ، وكذلك الوقوف إلى جانبهم فى البحر المتوسط أمام فرسان القديس يوحنا ، ثم قبول التحالف معهم لمواجهة الخطر البرتغالى المتزايد . ولا شك أن هذه المواقف من قبل العثمانيين تجاه المماليك تدعوا لعدم قبول الرأى القائل برغبة العثمانيين فى التوسع على حساب المماليك ، فليس من المعقول أن يمد العثمانيون المماليك بمعونات ضخمة وبخاصة المعونات العسكرية وهم يبيّتون النية أو يخططون للتوسع فى أراضيهم .

وتؤكد العلاقات العثمانية المملوكية هذه الحقيقة فعلى الرغم من حدوث بعض المعارك بين الجانبين على الحدود الشمالية للمماليك فى بلاد الشام إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما ، وإن كانت قد أسهمت فى أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذى أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح (٨٩٦هـ / ١٤٩١م) . ومع أن السلطان المملوكى " قايتباى " قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لإنشغال جزء هام من قواته فى مواجهة البرتغاليين ، إلا أن السلطان العثمانى" بايزيد الثانى" قد بدد هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكى (٨٩٦هـ/١٤٩١م) ومعه مفاتيح القلاع التى استولى عليها العثمانيون على الحدود .

وقد لقى هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكى فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين ، وأسهمت هذه الأمور فى عقد صلح بينهما فى نفس السنة (٨٩٦هـ/ ١٤١٩م)

وظل هذا الصلح سارياً حتى نهاية عهد السلطان" بايزيد الثانى" (٩١٧هـ/١٥١٢م) وأكدت هذه الأحداث عدم وجود نية للتوسع لدى العثمانيين على حساب الأراضى المملوكية (١).

على أن الخلاف بين العثمانيين والمماليك على عهد" سليم الأول" و" قنصوه الغورى" يتحمل المماليك جانباً كبيراً منه ، فقد بدأ ذلك الخلاف بسبب استيلاء العثمانيين على إحدى الإمارات الموجودة على الحدود المملوكية فى بلاد الشام (٩٢٠هـ/ ١٥١٥م) ، وكانت هذه الإمارة برغم استقلالها ، ووجود صلة قرابة بين حاكمها وبين السلطان العثمانى ، تحت السيادة الإسمية للمماليك . ويرجع السبب الرئيسى فى استيلاء العثمانيين على هذه الإمارة وقتل حاكمها هو موقفه المعادى للقوات العثمانية أثناء مرورها فى طريقها لملاقاة القوات الصفوية ، فقد رفض تزويدها بالإمدادات وتقديم أى مساعدة لها ، ومنع أتباعه أن يبيعوا لهذه القوات المأكل أو يمدوهم بالمياه وغير ذلك (٢).

وعلى الرغم من قيام السلطان العثمانى بإبلاغ السلطان المملوكي بما تم تجاه هذه الإمارة وموضحاً له الأسباب التى دعته للإستيلاء عليها مبدياً حرصه على ألا يؤدى ذلك إلى إثارة الخلاف بينهما ، إلا أن القوة التى ظهرت بها القوات العثمانية أمام الصفويين وهزيمتها لهم قد أثارت مخاوف السلطان المملوكى وهو ما عبر عنه" ابن اياس" بقوله :" وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصوفى من ممالك الشرق فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان المملوكى" .

(١) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق،ص٤٩،٤٨،د. أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق،ص٤٠.
(٢) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق،ص٧٠، د. أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق، ص ٦٣ حيث يذكر أن السلطان سليم قد اعتبر إيواء الثائرين عليه تصرفا عدائيا من قبل المماليك.

وبدأ السلطان الغورى فى اتباع سياسة تتسم بالعداء تجاه العثمانيين ، وحدد " ابن إياس" هذه السياسة بمحاولة المماليك إثارة بعض القادة على العثمانيين فى إمارة الحدود التى سيطروا عليها ، كما آوى الغورى أحد أبناء الأمير" أحمد العثمانى" الذى قتله السلطان " سليم " وهو " قاسن العثمانى" واتخذه أداة لتهديد العثمانيين ، وفوق ذلك قام بالاتصال بالشاه " إسماعيل الصفوى " وأكد له وقوف القوات المملوكية إلى جانبه فى أى جولة قادمة للقتال بينه وبين العثمانيين (١).

وعلى أثر تحرك القوات العثمانية تجاه الأراضى الصفوية (٩٢١هـ/١٥١٦م) تحرك الغورى على رأس قوات مملوكية حتى وصل بها إلى الحدود العثمانية وهدد القوات العثمانية المرابطة على الحدود ، فأرسل السلطان " سليم العثمانى" رسلاً يعرضون الصلح على السلطان " الغورى" وسلموه رسالة من السلطان" سليم " تحتوى على عبارات التودد والاحترام ، فقبل الغورى الصلح وقرر إرسال سفراء لهذا الغرض للسلطان العثمانى (٢).

ومع أن أعمال السلطان المملوكى وبخاصة تحالفه مع الصفويين قد أثارت السلطان العثمانى وجعلته يرتاب فى موقف المماليك ، وأن الصلح بينهما بالتالى، وكما توحى مسيرة الأحداث ، كان لمجرد كسب الوقت حتى تنتهى أعمالها أمام الصفويين وحتى لاتصطدم بالقوتين الصفوية والمملوكية فى وقت واحد ، إلا أن الرغبة فى التوسع على حساب الأراضى المملوكية لم تدر بخلد" السلطان سليم" ففى أعقاب الصدام الذى حدث بينه وبين المماليك فى موقعة " مرج دابق" (٩٢١هـ/١٥١٦م) أدرك سليم أنه قد نجح باستيلائه على الشام فى القضاء على التحالف الصفوى المملوكى (٣) ، وأبدى رغبته

(١) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ،ص٧٢،٧٣.
(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق،ص٨٣.
(٣) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص٧٧، د. أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ، ص٨٢.

فى عدم استمرار القتال مكتفيا بسيطرته على الشام كى تصبح حائلاً بينه وبين هجوم مملوكى جديد أو بين عودة التحالف الصفوى المملوكى الذى يعد من أهم أسباب صدامه مع المماليك كما ذكر ابن أبى السرور البكرى(١).

لكن السلطان العثمانى على الرغم من ذلك أراد أن يضمن ولاء المماليك فى مصر له ، وألا يعودوا لمحالفة الصفويين ، فكتب إلى " طومان باى" السلطان الذى تولى بعد موت "الغورى" يطلب منه أن يجعل الخطبة والسكة باسمه ، وقيل أنه طلب منه أن يمثل أمامه لتأكيد ذلك وفى نفس الوقت طمأنه على سلامته ودولته باسمه ، ولكن السلطان المملوكى رفض ذلك وبدأ فى الاستعداد لجولة جديدة مع العثمانيين دون أن يرد على رسائل " سليم " المتكررة مما جعل " سليم الأول" يستعد لإرسال قواته إليه حتى يفرغ للقوات الصفوية ولمقومة الأطماع البرتغالية(٢).

وعند وصول القوات العثمانية إلى مصر ، وقبل وقوع الحرب بينها وبين القوات المملوكية أرسل السلطان المملوكى " طومان باى " يعرض الصلح على السلطان العثمانى مشترطا عليه أن يسحب جيشه ويخرج من مصر مقابل أن تكون الخطبة والسكة باسمه وقبل " السلطان سليم" هذا العرض وأرسل رسالة من كبار علماء الدين للتفاوض مع " طومان باى" لكن بعض معارضى " طومان باى" من المماليك هاجموا سفراء السلطان العثمانى وطاردوهم فأدرك سليم أنه موقف " طومان باى" ، وأن هذا العرض خدعة حتى يأخذ فرصة للإستعداد وأقدم على الحرب (٣).

(١) د. محمد أنيس : المرجع السابق ، ص١١٢،د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق،ص٧٣.
(٢) د. محمد أنيس: المرجع السابق: ص١١٢، د. أحمد فؤاد متولى: المرجع السابق،ص١٧٦،١٦٩. ويذكر أن سليم الأول قد استفزه عدم رد طومان باى على رسائله مما جعله يلجأ إلى التحديد فى رسائله الأخيرة.
(٣) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ،ص٨٠.

ويذكر المؤرخ" أحمد بن زنبل الرمال" قول السلطان" سليم الأول" لـ" طومان باى" بعد هزيمة الأخير فى معركة " الريدانية " وقبل أن يعدم :" والله ما كان قصدى أذيتك ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولادست أرضك"(١) .

ويتضح من خلال الصراع الصفوى العثمانى وكذلك الصراع المملوكى العثمانى أن الصفويين والمماليك ، كلا على حدة ، هم الذين بدأوا بالتحرش بالقوات العثمانية ، وأن الدولة العثمانية كانت مضطرة للدخول فى حرب مع كل منهما ، وبالتالى فإن نية التوسع فى الشرق لم تكن هدفاً سياسياً لدى أى من السلاطين العثمانيين قبل وقوع هذه الأحداث أو أثناءها . وإذا كانت التهديدات الصفوية المتكررة للعثمانيين من بين الأسباب التى دعتهم للعودة للساحة الشرقية فإن الخطر البرتغالى على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية ، وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التى دعت السلطان العثمانى لأن يوقف فتوحاته العسكرية على الساحة الأوربية ويعود إلى الشرق . فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض فى البداية ، ثم تحمل العبء الكامل فى مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكى (٢) . ونستدل على ذلك بما قاله السلطان " سليم الأول " العثمانى لـ" طومان باى" آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه فى معركة الريدانية :" أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة – ويعنى بهم الصفويين – والفجار – ويعنى بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا – فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر إلى حلب

(١) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص٣٨.
(٢) د. محمد أنيس : المرجع السابق ،ص١٣٠.

واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى إلى مملكتى التى هى موروث أبائى وأجدادى ، فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه " ، والذى يدعونا للأخذ الاستدلال بقول السلطان العثمانى هو أنه كان قد انتصر ولم يكن فى حاجة إلى أن يظهر خلاف ما يبطن أو غير ذلك (١) .

وقد ظل طابع الجهاد هو الطابع الذى يميز الدور العثمانى تجاه البرتغاليين فحينما استغاث بعض المسلمين فى الهند بالسلطان العثمانى (٩٤٢هـ/١٥٣٧م) استجاب السلطان لهم فأرسل إلى واليه فى مصر " سليمان باشا الخادم " يقول:" عليك يابك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد فى سبيل اللّه ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رأيتهم من البحر"(٢) .

على أن من أبرز الأمور التى تمت فى عهد " السلطان سليم " هو انتقال منصب الخلافة إلى البيت العثمانى بعد تنازل آخر الخلفاء العباسيين ، الذى كان فى مصر ، عن المنصب للسلطان العثمانى ، وبعد أن أبدى أشراف الحجاز قبول ارتباطهم بالدولة العثمانية طواعية . وبغض النظر عن المهابة التى أكسبها هذا المنصب على البيت العثمانى وتقبل الشعوب الإسلامية لهذا الانتقال بعد أن لمسوا طبيعة الدور العثمانى فى الدفاع عن

(١) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ،ص٨٠،٨١. ويلاحظ بأن السلطان العثمانى قد اعتبر موقفه تجاه كل من الصفويين والبرتغاليين جهادا.
(٢) د. بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق، ص٢٥.

المقدسات والأراضى الإسلامية فإن مدلول هذا الانتقال قد ترك أثراً واضحاً على توجهات الفقهاء المفكرين المسلمين .

فقد خرجت الخلافة لأول مرة فى تاريخ المسلمين من البيت القرشى إلى بيت أبدى قدرة وغيرة على تعاليم الإسلام ، وبالتالى لم يعد من الشروط الأساسية فى تولى هذا المنصب النسب القرشى كما حاول القرشيون ترسيخه . وإذا كان ذلك قد أوحى إلى البعض بأن ذلك قد أدى إلى أن يأخذ لقب الخلافة معنى جديدا كون الخلافة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصبح يستمد سلطته من الله مباشرة[1] ، إلا أن ذلك البعد ينطوى على فهم علمانى للخلافة فالخلافة الإسلامية سواء أكانت فى البيت القرشى أم فى غيره تستمد السلطة من شريعة الله ، كما أن المصادر الإسلامية الأساسية وهى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لم تشر إلى أى إلزام بالنسب وإنما حصرت الإلزام فى المنهج وما كان ارتباط المسلمين عبر المراحل التاريخية للبيت القرشى إلا تعبيراً عن التقدير والحب لمن التزم بالمنهج والشريعة الإسلامية من أبناء البيت النبوى .

السلطان سليمان(القانونى) (٩١٢-٩٥٩هـ/ ١٥٢٠ -١٥٦٦م)

يعتبر عصر سليمان القانونى هو أزهى عصور الدولة العثمانية حيث بلغت فيه أوج عظمتها وقمة تطورها وقمتها ، ويرجع المؤرخون ذلك إلى العديد من الأمور:

أولا : ما اتصف به " سليمان" من صفات شخصية كالتسامح وحب العدل إلى جانب الحسم والحزم فى معاقبة الخارجين عليه دون تمييز بين جنس أو عنصر أو مذهب فأحبته الرعية ورهبته .

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ،ص٨٦.

ثانيا : الحجم الذى وصلت إليه دولته والذى ورثه عن أبيه فكانت تضم المشرق الإسلامى إلى جانب الأراضى التى سبق ضمها فى البلقان وأوربا ، فإلى جانب الأهمية الإستراتيجية للعديد من مواضع دولته وتحكمها فى مسارات وممرات تجارية وعسكرية ، واحتوائها كذلك على موارد اقتصادية هائلة ، كل ذلك أكسبه ودولته قوة ومهابة .

ثالثا : كان احتواء الدولة العثمانية للحجاز والمقدسات الإسلامية سبباً فى إكساب صفة الشرعية لوجودهم ، وكذلك المهابة لحاكمها بين الشعوب الإسلامية وبخاصة بعد إنتقال الخلافة إليهم ، والمشروعية فى مواصلة الفتح شرقاً وغرباً. هذا إلى جانب أن ذلك قد أسهم فى زيادة موارد الدولة من الناحية الاقتصادية بشكل أسهم فى تغطية تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى المحيطات البعيدة عبر طريق رأس الرجاء الصالح وهو الأمر الذى لم يستطع المماليك استثماره وتقدير أبعاده .

رابعا : ورث " سليمان " قوة عسكرية كبيرة تتمثل فى الانكشارية التى زادها ونظّمها أبوه فساعدته على إرساء الأمن فى ربوع الدولة ، كما ورث أسطولا كبيراً فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، وقد استفاد " سليمان " من ذلك فى إغلاق البحر الأحمر وجعله إسلامياً خالصاً ، والخروج إلى المحيط الهندى لمساعدة المسلمين فى شرق إفريقيا والتطلع إى مساعدة مسلمى الهند . أما على ساحة البحر الأبيض فقد أصبح به أقوى من ذى قبل براً وبحراً ، وساعده على استكمال الدور العثمانى على الساحة الأوربية .

الدور الحربى لسليمان فى البحر المتوسط وأوربا

لعل من أبرز النتائج التى ترتبت على وجود قوة عسكرية كبيرة لسليمان فى البر والبحر أنه أصبح مهاب الجانب ضد كافة القوى المحيطة به ، ولهذا امتلك هو زمام المبادرة فى تحركاته العسكرية سواء فى اختيار أوقاتها أم فى اختيار وجهتها .

ففى ساحة البحر المتوسط استولى على جزيرة " رودس" (٩١٤هـ/١٥٢٢م) التى كانت مقرا لفرسان القديس يوحنا والتى كانوا يهاجمون منها سفن المسلمين فى المشرق العربى سواء التى كانت تنقل الحجيج إلى مصر ثم إلى الحجاز أو السفن التجارية وبالتالى تمكن من تأمين جبهة شرقى البحر المتوسط ، وانتقل فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة " مالطة " فى النصف الغربى من هذا البحر.

أما على جبهة شرق أوربا ووسطها فقد هاجم " المجر"(٩١٣هـ/١٥٢١م) واستولى على بلجراد ، وسارع البنادقة بإعلان الولاء له ، كما تقرب منه ملك فرنسا وعقد معه اتفاقية.وواصل زحفه على المجر حيث تمكن من هزيمة ملكها فى معركة "موهاكز" (٩١٨هـ/١٥٢٦م) واستولى على عاصمتها وأسر العديد من رجالها إلى جانب عدد أكبر سقطوا قتلى فى المعركة .

وفى سنة (٩٢١هـ/١٥٢٦م) حاصر" فيينا" عاصمة النمسا بجيش بلغ الربع مليون جندى ، لكنه لم ينجح فى اقتحامها لبسالة أهلها مما دعاه لفك الحصار عنها.

أما فى جبهة شرقى الأناضول فقد ظهرت حركة الدرويش " قلندر بن اسكندر"(٩٣٤هـ/١٥٢٧م) حيث تجمعت حوله جموع من الدراويش من أتباع الطريقة البكتاشية والقلندرية وغيرهم من جموع الساخطين على الحكم العثمانى ، وبلغت قوة هذا الدرويش ثلاثين ألفا تمكن بها من تحقيق بعض الانتصارات على القوة العثمانية ، إلا أن

العثمانيين استطاعوا أن يقنعوا بعض اتباعه بأن ينفضوا من حوله ، ثم هاجموه وقضوا على حركته .

ثم عادت الحرب مع الصفويين تشتعل من جديد فى عهد" طهماسب" ابن الشاه " إسماعيل الصفوى" ، وتمكن العثمانيون من الإستيلاء على بغداد (٩٤١هـ/١٥٣٤م) ثم سرعان ما دخلت القوات العثمانية البصرة (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) ، وبعدها امتد الحكم العثمانى إلى الإحساء وساحل الخليج العربى (٩٦٣هـ/١٥٥٥م) ، وتقلص بهذا دور العناصر الشيعية فى المنطقة لصالح اتباع المذهب السنى .

ومن خلال العلاقة التى ربطت بين حركة الجهاد الإسلامى فى الشمال الإفريقى والتى قادها " خير الدين بربروسا " وأخوه" عرّوج" امتد النفوذ العثمانى إلى المغرب العربى الإسلامى على حساب تقلص الدور الأسبانى والبرتغالى فى غربى البحر المتوسط . وكانت عدن قد انضمت من خلال والى مصر إلى العثمانيين ، وتحققت السيادة الإسلامية على البحرين الأبيض والأحمر خلال عهد " سليمان القانونى" .

وعلى الرغم من أن عصر " سليمان" كان عصر القوة العثمانية التى لم تبلغها فى أى مرحلة من تاريخها والتى دعت مؤرخى الغرب لأن يضفوا عليه العديد من الصفات كـ" سليمان العظيم" و" سليمان الفخم" وغير ذلك ، إلا أن أحد عوامل الضعف كانت كامنة فى قصره من الداخل . وقد تركز هذا العامل فى زوجته " روكسانا الفرنسية" التى كان أسيرا لها ، فقد كانت جارية أهدته لها أمه ، ونجحت هذه الجارية الفرنسية بجمالها ولباقتها من أن تفرض عليه شباكا لم يستطع منها فكاكا ، فتزوجها وآثرها على بقية زوجاته ، وقتل من أجلها أعظم قواده وهو " الصدر الأعظم إبراهيم " الذى تولى القضاء على حركة " قلندر بن اسكندر" ، والذى كان صديقاً له من قبل أن يتولى الحكم . كما دفعته لأن

يقتل ابنه الأكبر " مصطفى " من زوجته الجركسية ، بل وابن ابنه مصطفى الذى لم يكن قد تعدى الثانية عشرة من عمره ، ونجحت فى أن يخلو الطريق لتولى أبنها سليم الحكم والذى عرف بـ" سليم الثانى " وفى عهده بدأ عصر الضعف والإضمحلال الذى ألم بالدولة العثمانية

كما امتد تأثير هذه الزوجة إلى حد دفع " سليمان" لعقد اتفاقية الإمتيازات الأجنبية مع" فرانسوا الأول" ملك فرنسا (٩٣٤هـ/١٥٣٦م) ، ومع أن هذه الإتفاقية قد ساعدت على نمو التبادل التجارى بين العثمانيين وفرنسا ، وأنه لم يبرز أثرها السلبى فى عصر "سليمان" لما كانت تتمتع به الدولة العثمانية من قوة إلا أن أثرها السلبى قد بدأ واضحا فى استغلال الفرنسيين لها بعد أن ألم الضعف شيئا فشيئا بالدولة ، وكذلك طالبت الدول الأوربية بحقوق و امتيازات مماثلة مما أدى إلى زيادة نفوزها داخل ولايات الكيان الإسلامى ، فكانت من أبرز عوامل الضعف والهدم الذى هز جسم هذه الدولة حتى نهايتها .

جهود العثمانيين فى نشر الإسلام فى شرقى أوروبا

على الرغم من أن ظروف نشأة الكيان العثمانى السياسية قد فرضت عليه ضرورة رفع راية الإسلام والتركيزعلى إبراز الطابع الدينى له ، إلا أن أيا من المراجع لم يشر إلى وجود مؤسسات للدعوة له وبالتالى لم تكن هناك وسائل واضحة لنشره فى المناطق المفتوحة حتى القرن السادس عشر على الأقل .

ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن إسلامهم لم يكن واضح الهوية حيث جعلته الطرق الصوفية خليطاً بين عديد من العقائد الموروثة ، ولم يكن مذهباً جديداً يدعوهم لصبغ دولتهم به أو السعى لنشره وإنما اتبعوا النمط الدينى الذى كان سائدا قبلهم والذى كانت العناصر المسيحية المحلية والمجاورة تعرفة وتحارب كياناتة السياسية .

وإذا كان بعض الكتّاب المعاصرين للتوسع العثمانى فى البلقان قد أشار إلى وجود جماعة تسمى جماعة " الدعوة إلى الدين " ، قامت بدور لنشر الإسلام فى هذه المناطق وخاصة ألبانيا ، فإن هذه الجماعة لم تكن تابعة للدولة ولكنها كانت عبارة عن جماعة من دراويش الطريقة البكتاشية هاجرت فى أعقاب الجيوش واستقرت فى هذه المناطق ، كما استقرت مجموعات أخرى منها فى كثير من مناطق البلقان (١). وإذا كانت قد حققت نجاحا محدود اقتصر علي تحويل بعض المسيحين فى هذه المناطق إلى الإسلام فإن ذلك لا يرجع إلى قوتها فى الدعوة أو قدرة أبنائها على إقناع هذه الشعوب بالإسلام حيث إن " مجموعة الصوفيين لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة " بقدر ما كان يرجع إلى ما احتوتة تعاليمها من إباحية وانحلال شجعت كثيراً من هذه العناصر على قبول الدخول فى حوزة الدولة والدين معا (٢) ، ولم يكن للمساجد . من خلال الوعظ . أى دور فى هذا الميدان حيث لم يكن هؤلاء الوعاظ على مستوى علمى يمكنهم من هذه المهمة وكذلك المدارس التى أسسها العثمانيون والتى لم تكن تستوعب أبناء المسلمين (٣) .

على أن ذلك لايعنى تجريد سلاطين العثمانيين من حماس نسبى لنشر الإسلام وبخاصة بعد إستقرار نظامهم السياسى ، وبدا ذلك الحماس فى سياسة التسامح التى أتبعها أغلبهم من العناصر المسيحية . أما فى فترة وجودهم فى الأناضول فقد أنتشر الإسلام ببطء شديد لسيادة الجانب المسيحى من جانب وعدم وضوح سياسة التسامح التى أتبعها بعضهم من جانب أخر ، وظلت هكذا حتى القرن الثالث عشر حيث تؤكد ذلك

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ،ص٢٠٧ .؛ د. محمد موفاكو : البكتاشية ، مجلة العربى العدد ٢٢٠ مارس ١٩٧٧م.

(٢) محمد علاء منصور : المرجع السابق ، ص ٧٥ . وعن ارتباط البكتاشية بالحركة الوطنية الألبانية أنظر د. محمد موفاكو : المرجع السابق ، ص ٦٤ـ ٦٨ ، د. الشناوى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص٤٤١.

(٣) د. عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ،جـ١، ص٤٤٧ـ٤٤٨.

زيادة نسبة الجزية فى ميزانية الدولة ، كما أن حركة " التتريك " لم تسر سيراً موازياً لانتشار الإسلام حيث قبل بعض المسحيين الإسلام ، مع الإحتفاظ بلغتهم ، وقبل بعضهم اللغة مع الإحتفاظ بدينة ، وهو أمر يدعو الكثيرين إلى أستنباط التزام الأتراك . إلى حد كبير- بعدم الإكراه فى الدين (١) ، وهى سياسة وإن كانت نابعة من ضعف ثقافتهم الدينية أكثر من قناعتهم الدينية بها ، إلا أنها تؤكد سماحتهم الدينية مع غير المسلمين .

ومن أبرز السلاطين الذين سلكوا سياسة السماحة مع الرعايا المسحيين السلطان " محمد الفاتح " حيث أعلن نفسة حامياً للكنيسة الإغريقية وحرّم اضطهاد المسحين وأكد حقهم فى التمتع بالامتيازات القديمة وسلم بطريركها الأسقفية ومنحه حق الفصل قضايا رعاياه وجعله واحداً من كبار رجال دولتة مما جعل الكثير من المسحيين الإغريق يرحبون بسياسة العثمانيين على الكاثوليك الهراطقة (٢) ، وإن كان هذا يفسر على أنه محاولة لاستجلاب ولاء هذه العناصر ومساهمتها فى النظم الإدارية أكثر من الحرص على تغير ديانتهم .

وكانت الجزية ومجموعة الضرائب التى فرضها العثمانيون على رعاياهم المسحيين أقل بكثير من التزاماتهم تجاه الإقطاعيين فى بعض فترات الحكم البيزنطى ومنح العثمانيون العمال الزراعيين المسحيين حرية شخصية وإمكانية التمتع بنتائج عملهم على غير ما كانوا عليه فى ظل الإقطاع البيزنطى على تدعيم النواحى الإقتصادية بشكل عام والجزية بشكل خاص ، وحاول العثمانيون من أجل هذا ترويج الحياة الاقتصادية فعبّدوا الطرق وبنو الكبارى فى بعض الموانىء الإغريقية مما كان له أكبر الأثر

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ، ص١١٠ .
(٢) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص١٧٠ .

obeikandl.com

فى رواج الصناعة والتجارة فى الموانىء ومنحوا تجارها حرية التجارة مع كافة الموانىء العثمانية الأخرى مما جعل الطبقة البورجوازية إلى جانب عامة المزارعين تتحالف تحالفا كاملا معهم (١).

وحين منح العثمانيون امتيازات موسعة للمسلمين الذين كانوا ينخرطون فى سلك الجندية أو فى دواليب الدولة لم يتقيدوا بالجنسية التى ينتمى إليها المسلم مما أدى إلى تشجيع كثير من العناصر المسيحية على اعتناق الإسلام فى القرى والكليات أو المدارس الكبيرة فى المدن وفتحوا قصورهم لتعليم أصول الخدمة العامة وقبلوا فى هذه المدارس رعاياهم من مسلمين ومسيحيين دون أدنى تفريق فى المعاملة مما دفع كثيرين من الرعايا إلى تقبل الأوضاع الجديدة وأعتنق بعضهم الإسلام (٢).

وسلك العثمانيون سبلاً أخرى لإغراء المسيحيين على اعتناق الإسلام كاغراء الزائرين بفتح بلادهم لهم ، والاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهال به فى المساجد ، والحرص على إظهار تمسكهم بالدين، والتواضع فى أداء الشعائر وغير ذلك من الأساليب والمظاهر التى أغرت كثيرين من المسيحيين على اعتناق الإسلام (٣).

كما أن بعضهم قد سلك سياسة اللين فى معاملة الرقيق من المسيحيين حيث كانوا يعتقونهم إذا ما ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة

---

(١) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص١٧٠.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص٤٠ محمد فؤاد كوبريلى ،ص٢٧،٢٨ حيث يذكر عن تأسيس مدارس للفقه فى بروسه ونيقية وغيرهما واستجلاب عناصر من الخارج ، يرجع أن تكون عربية ، لهذا الغرض مما كان له الأثر فى اتساع الثقافة الإسلامية.

(٣) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص١٨٥،١٨٤.

كبار السن منهم بعد العتق فضلا عن حسن معاملة من يسلم منهم أو من يظل على دينه مما كان دافعاً لهذا القطاع على اعتناق الإسلام(١).

وحين أقبل كثيرون من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن على اتباع دين أزواجهن ، كما أن اللاتى بقين على المسيحية وقعن بتعميد أبنائهن فى الكنيسة لم يلاقوا – فى الغالب – معارضة من الأزواج مما خلق روحا من الود أثار إعجاب البعض فتشجع على الدخول فى الإسلام (٢).

وحاول الكثيرون من العناصر المسيحية التى وجدت مصلحتها فى اعتناق الإسلام إغراء ذويهم من المسيحيين على الإقبال على هذا الدين مما دفع بعض الكتاب المسيحيين لأن يعتبر قدوة سيئة دفعت عدداً كبيراً لتغيير ديانتهم ، بل ومساعدة الدولة دون التقيد بتغيير الدين (٣).

كما اتبع بعض العثمانيين أسلوبا آخر كان ظاهره السعى لإيجاد توازن اجتماعى حيث قاموا بنقل عناصر إسلامية من أوربا الشرقية إلى الأناضول لكن ذلك ساعد على انتشار الإسلام بين هذه العناصر بشكل تدريجى (٤).

ويورد " نومان بينز" أحد الأساليب – المنفردة فى رأيه – التى سلكها بعض العثمانيين فى سبيل نشر الإسلام حيث يرقصون ويغنون ويرددون فى أصوات غير مفهومة أغانى – وتراتيل – محمد عليه الصلاة والسلام – وهى أساليب صوفية – فصرفوا

(١) المرجع السابق، ص٢٠٤.
(٢) المرجع السابق ، ص٢٠٧،٢٠٨.
(٣) المرجع السابق،ص١٩٦.؛كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية ، ت: بدر الدين القاسم ،ص٢٧٤،٢٧٥.
(٤) كلود كاهن: المرجع السابق، ص٢٧٥.

الناس الموجودين فى الكنيسة – التى كانوا أمامها – عن عبادتهم مما أدى إلى نمو شعور عدائى للإسلام ، واعتبر ذلك – وهو أمر مبالغ فيه – أسلوبا عدائيا (١) .

ولما شرع السلطان " مراد الأول" فى اتباع سياسة الإفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام ، أسهم فى زيادة عدد المسلمين ، لكنه مع ذلك كان إسهاما محدودا مما دفعه إلى التوسع فى تأسيس جيش الإنكشارية (٢) .

ويرى البعض أن أسلوب الإنكشارية سوءة أساءت إلى سياسة التسامح الدينى التى اتسم بها جانب من التاريخ العثمانى وبخاصة فى الفترة من القرن الثالث عشر وحتى السادس عشر (٣) ، كما يرى البعض الآخر أنها كانت وسيلة لتدعيم القوة العثمانية قبل أن تكون وسيلة لنشر الإسلام وبخاصة فى فترات الضعف (٤) ، فى كان يغلب عليها هدف السعى لنشرالإسلام فى فترات القوة (٥) .

وقد بدأ الأخذ بهذه الوسيلة فى عهد "أورخان" ، وعرفت بنظام " الدوشرمة" فكان مندوبوا السلطان يجوبون الأراضى المفتوحة لجمع الأطفال فى سن السابعة ثم تدريبهم فى مدارس تعد لهذا الغرض على اعتناق الإسلام والجندية والمهام الإدارية (٦) .

وعلى الرغم من التسليم – نسبياً – بتنافى ذلك مع الإنسانية إلا أن العثمانيين لم يكونوا أول من ابتدع هذا النظام بل وجدت ظاهرة جمع الغلمان فى الدولة البيزنطية، كما

---

(١) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة : د. حسين مؤنس وآخرون ،ص٣٩٧.
(٢) محمد فؤاد كوبريلى : المرجع السابق،ص٨،٩.
(٣) توماس أرنولد: المرجع السابق،ص١٧٥.
(٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤١-٤٣. لم يزد عددهم حتى عهد محمد الفاتح عن ١٢٠٠.
(٥) محمد فؤاد كوبريلى: المرجع السابق،ص٤٠٩.؛د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١،ص١٧١. وقد تولى مشايخ البكتاشية تعليم هؤلاء الغلمان التعاليم الإسلامية ، أنظر :د. عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ،ص٤٨١،٤٨٠.
(٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق،ص٤١.

أن جمع العثمانيين لهم فى أغلبه نوعا من الإيواء بعد أن أصبح كثيرون منهم من اليتامى والمحتاجين بسبب الحرب ، وكذلك كان بعض الآباء غير القادرين لا يمانع فى تسليم أبنائهم لما كانوا يرونه من مكانة لجنود الإنكشارية فى حين كان القادرون يستطيعون افتداء أبنائهم بشراء غيرهم حتى من أبناء المسلمين غير القادرين ويسلمونهم على أنهم من أبناء المسيحيين ، كما أن كثير من المدن والجزر التى كانت معفاة من الضريبة لا تفاقها على ذلك فى معاهداتها مع الدولة أو لشرائها هذا الحق (١) .

وكما لعبت العوامل الاقتصادية دورا رئيسيا فى انتشار الإسلام فى نظام الإنكشارية لعبت دورا آخر بين العامة الفقيرة فى منطقة البلقان حيث لم تستطع جموع كبيرة منها الوفاء بضريبة الرأس على الرغم من أنها كانت بسيطة ومحدودة ، والتى كانت تجبى منهم مقابل الحماية والإعفاء من خدمة الجيش (٢) .

ومن العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام فى البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين فى فرض الضرائب الباهظة التى زادت فى بعض الأحيان عما كان يفرضه العثمانيون كما أن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا لتوثيق علاقاتهم بالنظام العثماني – بعد الغزو – من جهة أخرى . وحرصا من هذه الطبقات على النظام الذى ينعمون فيه بنصيب وافر من الثراء والمكانة أبدى كثيرون منهم الميل لاعتناق الإسلام (٣) .

كما أسهم الصراع المذهبى بين الطوائف المسيحية فى دفع جموع كثيرة من المضطهدين لاعتناق الإسلام وبخاصة الجماعات الثائرة على النمط الكنسى القديم كبقايا

(١) توماس أرنولد: المرجع السابق،ص١٧٦،١٧٧.
(٢) المرجع السابق،ص١٨٠.
(٣) المرجع السابق، ص١٨٧، ص٢٢٢ ،_وبل وساعد بعضهم على نشره مستغلين ما كان لهم من نفوذ.

هراطقة البوليشية ، وكذلك الذين اتبعوا مبادئ المصلح الدينى السويسرى " كلفن" والذين لجأوا إلى الأراضى التابعة للدولة العثمانية ، ووصل أحدهم إلى كرسى البطريركية فى القسطنطينية ، وكان لهؤلاء دور فى محاربة الصور والتماثيل وطرح رؤية فى القضاء والقدر والوحدانية ، وأدى هذا إلى تهيئة العقول وتقريبها إلى بعض المبادئ الإسلامية مما سهل عملية اعتناق بعضهم الإسلام ومن بينهم بعض الرهبان والقساوسة .

وقد توسع العثمانيون فى المنح والعطايا والتقدير لرجال الدين الذين أقبلوا على الإسلام كى يسهموا بدورهم فى دفع العامة إلى هذا الاتجاه (١). وأبدى كثيرون منهم إخلاصاً شديداً للسلطان العثمانى فيما بعد لدرجة أن أحد بطاركة القسطنطينية قد أقنع السلطان بأن الرعايا المخلصين له من المسيحيين هم فقط الذين يتحدثون اليونانية مما دفع السلطان لإصدار فرمان بعدم التحدث بغير اليونانية وتحول على أثر ذلك القرار قرابة أربعة آلاف إلى الإسلام (٢).

وأدى إهمال بعض رجال الكنيسة عن متابعة القضايا الاجتماعية – وبخاص فى ألبانيا – إلى عدم اكتراث العامة بتعاليم الكنيسة فأقاموا عقود الزواج بعيدا عنها كما كان عند المسلمين ، فحرمتهم الكنيسة من دخولها مما أدى إلى تهيؤ الكثيرين منهم لاعتناق الإسلام (٣) ونخلص من هذا أن إعلان العثمانيين الإسلام كانت له أهداف سياسية لا دينية ، وأن العناصر الإسلامية التى ساندتهم فى تكوين كيانهم السياسى قد حققت العديد من المصالح خلال هذه الفترة مما دعا لدوام المساندة . كما أن سيادة هذه المصالح

(١) توماس أنولد : المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، ٢٢٢. وقد ذكر نقلا عن ياقوت الحموى – أن بعضهم وخاصة العرب – قد أرسلوا إلى حلب للتعرف على التعاليم الإسلامية.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٤ – ١٩٦، وكان هذا فى القرن /١٨.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٣، ٢١٦، ٢١٩. وكان بعضهم يقبل على عادة تعدد الزوجات والزواج من تركيات مما سهل عملية اعتناقهم للإسلام.

والحرص على تدعيم النظام واستمراره – الذى كان يتخذ من الإسلام وسيلة – بعكس الفتح الإسلامى على يد العرب – قد أدى إلى انتشار محدود ومشوه للإسلام فى شرقى أوربا وبالتالى لم يكن يتناسب مع فترة الحكم الطويلة التى زادت على أربعة قرون ، وأن هذه الأسباب نفسها هى التى دعت لانحسار المد الإسلامى فى هذه المناطق إلى حدود ضيقة بعد زوال الحكم العثمانى .

العثمانيون وحركة الجهاد الإسلامي في البحر المتوسط

كان من آثار الطرد الجماعي للمسلمين من الأندلس ومزوح أعداد كبيرة منهم إلي الشمال الإفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الإفريقي . ولما كان من بين المسلمين النازحين إلي هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها ، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلي طريق الجهاد ضد القوي المسيحية في البحر المتوسط . ويأتي في مقدمة هذه العوامل الروح الدينية التي سادت ماسمي بحب الاسترداد قبل خروجهم من الأندلس ، واستمرار هذه الروح بعد ذلك في متابعة القوات الأسبانية والبرتغالية للعناصر الإسلامية في الشمال الإفريقي . وقد ظلت حركات المقاومة الإسلامية حركات فردية غير منظمة مما سهل للقوات المهاجمة الفضاء عليها الأمر الذي أدى إلي تجمع هذه القوي وراء إحدى حركات الجهاد الباروة والتي قادها الأخوين خير الدين بربروسا وأخيه عرّوج ، حيث ارتبط دورها بالجهاد الإسلامي والدور الوطني في هذه المنطقة في مطلع التاريخ الحديث .

وقد اعتمدت هذه القوة في مقاومتها أسلوب الكر والفر في البحر وذلك لعدم قدرتها علي الدخول في حرب نظامية ضد القوي المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان

القديس يوحنا ، واستطاعوا أن يحققوا قدرا من النجاح بشكل أثار قلق القوى المعادية ومع ذلك فقد اضطرت هذه الحركة إلي طلب المعونة من الدولة العثمانية ، وكان ذلك بداية لسعيها للارتباط بهذه الدولة .

وحاول المؤرخون الأوربيون التشكيك في طبيعة هذه الحركة ووصفوها بالقرصنة وكذلك التشكيك في أصل قادتها ممثلا في الأخوين خير الدين وعرّوج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء علي أصل الأخوين وطبيعة دورهما ، ومدى تأثيرها علي مسار الحركة الاستعمارية المعادية للمسلمين في البحر المتوسط .

أصل الأخوين

ينتكي الأخوان عرّوج وخير الدين بربروسا إلي أسرة مسلمة ، فهما وأخوان آخران هما إسحاق ومحمد إلياس أبناء يعقوب ابن يوسف وهو تركي من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل (١) . وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها تأثيرها في تحويل وجهتهم في نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين (٢) . ومن الدلائل التي يسوقها المؤرخون لتأكيد أصولهم الإسلامية:

أولا : ما ذكره المؤرخ الجزائري " أحمد توفيق مدني " مستنداً علي أثرين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة علي باب حصن شرشال وثانيهما رخامة كانت علي باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية ، وقد نقش

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ص ١٥٥ . ؛ د . صلاح العقاد : المغرب في بداية العصور الحديثة ، ص ٣٧ .

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن يعقوب ابن يوسف كان مسيحيا وأسلم وأن الأم كانت أرملة لراهب أسباني ، ويري آخرون أنهما كانا من أروام جزيرة مدللي إحدى جزر الروم ثم أسلموا ودخلوا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس . أنظر : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ٩٥ .

علي الرخامة الأولي : " بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله علي سيدنا محمد وآله هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله . أوروج ابن يعقوب . بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (١٥١٨ م) . ونقش علي الرخامة الثانية إسم أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي ، وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ما شيده خير الدين في الجزائر سنة ١٥٢٠ م (١) .

ثانيا : أن إسم عرّوج أو أوروج مأخوذ . كما ذهب البعض . من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجّح أنه ولد ليلتها ، وأن الترك ينطقونه أوروج ثم عرّب إلي عرّوج (٢) .

ثالثا : أن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما علي الجهاد في سبيل الله وهومقاومة القرصنة المسيحية في البحر المتوسط وكذلك مقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية شمال إفريقيا .

وقبل إلقاء الضوء علي هذا الدور ينبغي أن نوضح أن القرصنة في القرن السادس عشر كانت تختلف كل الاختلاف عن اللصوصية والسلب ، فهي كالكمائن البحرية التي يعدها كل خصم لسفن أعدائه لمنع الصادرات والواردات والاستيلاء علي ما يمكن الاستيلاء عليه بقصد الإضرار بالعدو ، وهي بهذا تقترب من مفهوم الحصار الاقتصادي البحري في الحروب المعاصرة (٣) .

وكان لهذه الأعمال نظمها وقوانينها ، فقد كانت تنتهي بانتهاء الحرب أو العداء ، كما كانت تراعي المعاهدات والقوانين المعمول بها بين الدول . كما أن من يتتبع ظهور أعمال

(١) أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) إسم عروج بفتح العين وتشديد الراء خطأ والأصل أن تضم العين والراء،محمد فريد بك : المرجع السابق ص ٩٥
(٣) د . جلال يحي : المغرب الكبير ، العصور الحديثة ، ص ٢٠ . ويسمي هذه الحركة بالجهاد البحري .

القرصنة عند المسلمين فسيجد أنها قد بدأت في الأندلس ، وكانت رد فعل لأعمال القرصنة الأوربية التي صيغت عملها ضد الممالك الإسلامية بالصبغة الدينية (١) . ثم انتقلت مراكز القرصنة الإسلامية إلي شمال إفريقيا في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، وقد قويت بفعل انضمام القراصنة المسلمين الفارين من الأنلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين علي صناعة السفن (٢) .

دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو الأوربي

اتجه الأخوان عروج وخيرالدين إلي الجهاد البحري منذ الصغر ، ووجها نشاطهما في البداية إلي بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠ م (٣) ، لكن ضراوة الصراع بين القوي المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمال إفريقيا وبين المسلمين هناك والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر ، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلي هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكن الأسبان والبرتغاليون من الاستيلاء علي العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمال إفريقيا (٤) .

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات علي القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار إعجاب القوي الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق ، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان الحفصي لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرّضه لهجوم أسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الأسبانية بالضغط والقوة (٥) ، كما يبدو من

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ٨٣ ؛ د . علي حسون : الدولة العثمانية ص ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ٧٤ ؛ د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٥ .
(٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٩ .
(٤) د . علي حسون : المرجع السابق ص ٥٣ ؛ د . محمد أميس : المرجع السابق ص ٨٣ .
(٥) د . علي حسون : المرجع السابق ص ٥٢ . وقد أقطعهما الأمير الحفصي بعد ذلك مرفأ " حلق الوادي " ليكون لهما ، واتفق معهما علي خمس الغنائم ، وكان ذلك يحقق هدفين الأول إنقاذ دولته من السقوط أمام الضغط الصليبي والثاني إنقاذه ماديا بسبب ضعفه الاقتصادي الناتج عن الحروب . أجمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ١٥٨ ؛ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٥٣ .

خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما ، وتأثيرهم لهما داخل بلادهم مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة .

ويري بعض المؤرخين أن دخول " عروج " وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناء علي رغبة السكان ، ويستند هؤلاء إلي وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما ، لكن البعض الآخر يرون لأن وصول "عروج " وأخيه كان بناء علي استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسباني الشرس ، وأن القوي البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس ، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات ، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الوطنيين الذين استشعروا حقيقة خطر الغزو الصليبي الأسبانس (١) .

ويبدأ دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الأسباني سنة ١٥١٢ م ، وقد نقلا لهذا الغرض قاعدة عملياتهما ضد القوات الأسبانية فب ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنويين سنة ١٥١٤ م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى (٢)

ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه لكن أجبرا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر ، وزاد من حرج الموقف قتل عروج

(١) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٧ ؛ العبد سعيد مسعود : المجتمع الجزائري في العهد العثماني ص ٥٨ .
(٢) يذكر أحمد توفيق مدني أن عروج لم يتمكن من دخول بجاية بعد معركة شديدة فقد فيها ذراعه سنة ١٥١٢ م واستمرت محاولاته لتحريرها عدة مرات فقد خلالها شقيقه الفقيه محمد إلياس ، أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ١٧٠ ؛ محمد موفاكو : المرجع السابق ص ١٨ ؛ ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوي أنه قد نجح في تحرير بجاية ، المرجع السابق ج ٢ ص ٩٠٦ .

في إحدى المعارك سنة ١٥١٨ م مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه علي الاستقرار والمقاومة ومواصلة الجهاد ، وكانت الدولة العثمانية هي أقوي القوي المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم لأن القوي المحلية في الشمال الإفريقي كانت متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها علي الساحة الأوربية منذ فتح القسطنطينية (١) ، وأن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوي ، وإلي جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب الأخوانم ذلك ، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس ، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منها أو التحالف معهاعملاً مرغوباً (٢) .

ومن جهة أخري كانت الظروف في الدولة العثمانية علي عهد السلطان سليم الأول مهيّأة لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلي المشرق العربي وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه . كما سبق التوضيح . هو التصدي لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة ، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوي المحلية التي تعينها علي تحقيق هذه الأهداف .

التحالف مع العثمانيين

اختلف المؤرخون حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهما إلي الساحل الإفريقي

(١) د . علي حسون : المرجع السابق ص ٥٣ ؛ ويذكر أحمد توفيق مدني أن خير الدين قد قرر النزول إلي البحر بعد موت أخيه وعدم قبول الولاية علي الجزائر ولكن أهل الجزائر أقنعوه بأن ذلك واجب ديني فوافق موضحاً أن واجبه يحتم عليه التحالف مع الدولة العثمانية ، المرجع السابق ص ١٩٨ .

(٢) د . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ص ٩٠٢ ، ولم يكن سبب استنجاد خير الدين بالسلطان العثماني هو ثورة أهل الجزائر كما يذكر كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ٤٥٣ .

تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الإفريقي وعملاً علي تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط . وعلي الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور علي ساحة البحر المتوسط (١) .

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلي سنة ١٥١٤ م في أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء جيجل حيث أرسل الأخوان إلي السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة ، فقبلها السلطان ورد لهما علي الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة قرصنة مجهزة بالعتاد والجنود (٢) ، وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه . علي أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة جاء في أعقاب وفاة عروج سنة ١٥١٨ م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلي استانبول سنة ١٥١٩ م (٣) .

علي أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر ، وذلك يرجع إلي أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح بجاية ، كما أنهما حوصرا في جيجل بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الأسبان وبين سالم الثومي حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه علي دعم الأسبان له هو الآخر ، فضلاً عن قوة الأسبان وفرسان

(١) العبد سعيد مسعود : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ويري البعض أن علاقة الأخوين بالدولة العثمانية ترجع إلي بداية نشاطهما في بحر الأرخبيل حيث عملا في المنطقة العثمانية ، وأن أول مركب امتلكها من الدولة العثمانية التي كانت تبارك نشاطها ضد الأسبان وهذا يؤكد دورهما بأنه لم يكن قرصنة لتفريقهما بين السفن الإسلامية وغيرها . د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٧ .
(٣) د . الشناوي : المرجع السابق ص ٩٠٩ .

القديس يوحنا التي تحاصرهم من البحر. فكان لوصول قوة الدعم العثماني أثره علي دعم دورهما وشرعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين علي ضرورة الإسراع بدخولها قبل القوات الأسبانية لموقعها الممتاز من ناحية ولكي يسبقوا الأسبان إليها ، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الأسباني كبجاية وغيرها من ناحية أخري .

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الأسبانية ، كما تمكن من دخول ميناء شرشال ، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة١٥١٦م في موقعة مرج دابق (١).

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لوى تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلي جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية (٢).

معارك الأخوين في الجزائر في ظل التحالف العثماني

بعد أن بويع خيرالدين في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات علي الأسبان وعلي الزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي

(١) أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) من الأمور التي تؤكد ترحيب الأهالي بحماية خير الدين أنه دخل الجزائر برا علي رأس جيش من ثمانمائة مقاتل تركي ومعهم خمسة آلاف من قوات القبائل في البلاد ، ولو أن خير الدين وأخاه قد دخلا البلاد دون ذلك الدعم لكان من السها قهرهما وطردهما . العبد سعيد مسعود : المرجع السابق ص ٦٠ ، لكن بعض السخط قد أحاط عروج لما ارتكبته قواته من مخالفات بعد مقتل حاكم المدينة سالم الثومي .

كانت مازالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم ، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان. ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن ألا يكون كافيا لتدخل خير الدين إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي كان يجعل وجود خير الدين في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته ، وأن مطالبهم قد دعته اتعجيل بذلك(١) .

أعد خير الدين جيشا كبيرا زحف به إلي تلمسان سنة ١٥١٧ م وأمّن الطريق إليها وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الأسبان ، وعملاؤهم من بني حمود ، من استعادتها ولقي أحد إخوة خير الدين حتفه وهو إسحاق ، كما قتل عروج وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ذلك الحصار الذي امتد لستة أشهر أو يزيد حتى ١٥١٨ م .

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه إلي التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء . وكانت موافقته علي البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الأسبان ومؤيدوهم ، كما أن ذلك قد أدي إلي اتجاهه إلي مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية ، وبخاصة بعد أن دانت لها مصر والشام فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلي تأكيد ارتباطه بالآخر(٢) .

خير الدين والدولة العثمانية بعد وفاة عروج

بعد أن أصبحت الجزائر ولاية عثمانية وأصبح خير الدين واليا عليها من قبل هذه الدولة ، ومنحه السلطان العثماني لقب "باي لرباي " أي باي البايات أو " بكلربك " كان

(١) د ، صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٥٠ .
(٢) أرسل خير الدين وفداً من أهل الجزائر إلي السلطان لربط مصير بلادهم بالدولة العثمانية ، ودلت هذه الخطوة علي حنكة خير الدين السياسية ، د. الشناوي : المرجع السابق ص ٩٠٨ ؛ العبد سعيد : المرجع السابق ص ٦١ .

لابد من ربط جهود خير الدين بالدولة العثمانية بحكم أنه وال ينفذ أوامر السلطان أو علي الأقل يحصل علي موافقته في كافة خطواته وكذلك في مساعدته (١) . وبدأت أولي المساعدات العثمانية لواليهم في الجزائر بإرسال أربعة آلاف من المتطوعين الأتراك (٢) وكمية من العتاد والسلاح وذلك إسهاماً في الاستعداد لرد الحملة المتوقع إرسالها من قبل الأسبان لمواصلة محاولاتهم في إسقاط الجزائر وتقويض الحكم الإسلامي في الساحل الإفريقي الشمالي ، حيث شجعهم علي ذلك فشل خير الدين في دخول تلمسان ومقتل أخويه ، ورغبة منهم في الثأر لاستمرار صمود الجزائر أمام حملاتهم (٣) .

وقد أدرك الأسبان نتاج انضمام خير الدين للدولة العثمانية حيث أن رغبتها في ضم منطقة الجزائر بعد ذلك قد فرضت عليها ضرورة الإعداد لمواجهة هذه الدولة . لكن موقع الجزائر الهام ، والذي كان سيسقط بسقوط أغلب الساحل الإفريقي الشمالي ، قد دعاهم للإعداد السريع لحملة عليها قبل أن يستقر المقام بالعثمانيين بمصر وتمكنهم من إرسال جيش نظامي إليها . وفي سنة ١٥١٩ م وصلت هذه الحملة الأسبانية القوية مكونة من أربعين سفينة تحمل خمسة آلاف جندي ، وتساعدها قوة برية زحفت بجوار الساحل من تلمسان .

ووفق خطة رسمها خير الدين فقد ترك الجند الأسبان ينزلون بسلاحهم إلي البر وقام بعدة مناوشات سريعة قاصداً إنهاك عدوه وامتصاص حماس الجند ومحاصرة المكان الذي نزلوا به ، وقبل أن تصل القوات البرية من تلمسان نجحت قوات خير الدين في إثارة الجند الأسبان بفعل المناوشات ، فهاجم السفن من البحر بمناوشات مماثلة أدت إلي

(١) د . جلال يحي : المرجع السابق ص ٢٥ .
(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٠، ويذكر أن المتطوعين ألفين فقط .
(٣) د . الشناوي : المرجع السابق ص ٩١١ .

تقسيم القوات الأسبانية ، وهاجم في البر الجزء الباقي واستطاع أن يقضي علي هذا الجزء عن آخره .

ولا نستطيع مجاراة الذين يحاولون التقليل من جهود خير الدين ونجاحه في الانتصار وذلك بالتضخيم من العوامل التي ساعدته علي تحقيق هذا النصر ممثلة في العوامل المناخية حيث يذكر هؤلاء قيام عاصفة بحرية ، وإلي جانب ذلك عامل آخر وهو تقاعس ملك تلمسان عن الوفاء بوعده ، ومع أن ذلك لا يعني إنكار حدوث هذه العوامل إلا أن ما حققه خير الدين من نصر علي هذه الحملة القوية قد أكسبه شهرة واسعة (١) .

وقد أعطي هذا النصر جرأة لخير الدين فعزم علي ضرورة توسيع دوره في البحر المتوسط ، ودخل بالفعل مع الأسبان في عدة معارك بحرية حاسمة مثل معركة البالبار البحرية سنة ١٥٣٠ م والتي نجح فيها في تدمير أربع عشرة سفينة أسبانية وقتل قواتها . بل وصلت الجرأة إلي حد محاولة خير الدين لإنقاذ المسلمين المضطهدين الذين كانوا ما زالوا في أسبانيا والسعي لإحضارهم إلي الجزائر دون أن تجرؤ القوات الأسبانية . التي كانت قد نقلت نشاطها إلي المحيط الأطلسي . علي الاصطدام بقوات خير الدين ، كما تطور نشاطه ليشمل الساحل الإفريقي الغربي المطل علي المحيط الأطلسي (٢) .

وقد أسهمت هذه الأمور في أن تزج بخير الدين في السياسة الأوربية حيث كان تقدم العثمانيين في شرقي أوربا وحصار فيينا سنة ١٥٢٩ م علي عهد السلطان سليمان القانوني يعد إهانة لأسبانيا بحكم أنها من ممتلكات الهابسبورج ، وزادت انتصارات خير

(١) أحمد توفيق مدني : المرجع السابق ص ٢١٠ ، وقد تمكن بمساعدة العثمانيين من فتح تونس ١٥٣٤ م والقضاء علي الحفصيين ، د . صلاح العقاد : المرجع السابق ٢١ .

(٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤ . وكانت الدولة العثمانية قد استدعت خير الدين واستطاع أن يبدد بعض الشكوك تجاه دوره وعلاقته بها ، وقد حاول امبراطور أسبانيا أن يدفع خير الدين للخيانة مقابل أن يصبح ملكا علي الجزائر لكن خير الدين رفض هذا الأمر .

الدين في البحر المتوسط والشمال الإفريقي علي أسبانيا الموقف اشتعالاً ، فتزعمت أسبانيا الدعوة لتجمع صليبي أوربي لمواجهة الزحف الإسلامي . وفي نفس الوقت كان الجواسيس الأسبان يحاولون إثارة الشكوك لدي السلطان العثماني حول أطماع خير الدين وأنه يريد الاستقلال بملك الجزائر ليصبح ملكا عليها .

علي أن خير الدين قد قضي علي مثل هذه الأمور وأكد في نفس الوقت علي أنه رجل دولة وقائد سياسي ماهر حيث نجحت مساعيه في عقد تحالف فرنسي عثماني منتهزاً فرصة الخلاف الذي دب بين فرنسا وأسبانيا واتجاه فرنسا للاستعانة بالدولة العثمانية ، وقد قصد خير الدين من هذه المساعي إفساد الحلف الصليبي الذي كانت تدعو إليه أسبانيا من جهة وأن تشغل أسبانيا بخلافها مع فرنسا أكثر من غيره من جهة أخري . كما تمكن خير الدين كذلك من توضيح أبعاد الأطماع الأسبانية في شمال إفريقيا للسلطان العثماني وبالتالي الحصول علي دعم جيد لفتح تونس ومساعدة القوي المحلية فيها الراغبة في التخلص من التبعية للأسبان .

ومع أن خير الدين لم يتمكن من تحقيق كافة أهدافه في حياته إلا أنه استطاع أن يرسم استراتيجية ثابتة للدولة العثمانية في المغرب العربي (١) . كما كان له دور واضح في تأسيس الأسطول العثماني حيث بدت الحاجة إليه في أعقاب حملات الانتقام المتتالية التي أعدتها أسبانيا مدعومة بقوي أوربية إلي جانب البابوية (٢) ، فقد تم استدعاؤه إلي عاصمة الخلافة سنة ١٥٣٦ م ليشرف علي إعداد ذلك الأسطول وقيادته ونجح في تحقيق

(١) وذلك يرجع إلي استرداد أسبانيا لتونس بعد عام واحد من فتحها ، كما أن مساعي أسبانيا ومعها البابوية لتكوين الحلف الصليبي أمام التحالف الفرنسي العثماني وهو أمر أحرج فرنسا وأفسد تحالفها مع العثمانيين في النهاية .
(٢) محمد فريد بك : المرجع السابق ص ٩٨ .

العديد من الانتصارات في البحر المتوسط والشمال الإفريقي حتى توفي في استانبول سنة ١٥٤٧ م (١) .

العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربى الإسلامى

اعتبر كثيرون من المؤرخين الأوروبيين والعرب أن السبب الرئيسى فى تخلف المشرق العربى يرجع فى المقام الأول إلى العزلة التى فرضها العثمانيون عليه ما يقرب من ثلاثة قرون ، وأعدوا هذه العزلة فى مقدمة السوءات التى يتسم بها نظام الحكم العثمانى للوطن العربى . وبقدر ما يعبر ذلك من قبل المؤرخين الأوروبيين عن غزو أوروبى يتمثل فى جعل الحضارة الأوربية محوراً أساسياً لتاريخ تقدم أو تخلف الشعوب، بل وحتى يبدو فى تحديد موقع الشعوب الأخرى من أوروبا كالشرق الأوسط والأدنى والأقصى وغير ذلك ، فإن موقف المؤرخين العرب . يعبر فىأغلبية . عن نزعة استسلام وانهزامية نتجت عن انبهارهم بمعطيات هذه الحضارة ومظاهرها وإحساسهم بالعجز تجاهها كان من أول آثاره التزامهم بالتبعية الفكرية وانسياقهم وراء تحليلات المؤرخين الأوروبيين للتطور التاريخى .

وحتى تلك المحاولة التى قدمها الدكتور " عبد العزيز الشناوى " فى كتابه " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " والتى حاول خلالها . من منظور إسلامى . أن يبرهن على أن العثمانيين لم يفرضوا تلك العزلة على المشرق العربى من خلال إثباته لمجموعة معاهدات واتفاقيات تجارية عقدها العثمانيون بين كل من جنوة والبندقية وفرنسا ثم انجلترا وبين ولايات المشرق العربى ، وأن الولايات العربية هى التى تقاعست عن العمل

(١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٢ ، ٤٦ ، ولم يكن استدعاؤه للعاصمة العثمانية هو آخر عهده بالجزائر بل إنه اتخذها قاعدة أثناء مساعدته لفرنسا ضد أسبانيا في ١٥٤٣ م ، وكذلك فإن أهل الجزائر قد جعلوا ابنه حسان واليا عليهم اعترافا بدوره وهو أمر يؤكد دخوله الجزائر بناء علي رغبة أهلها . د . الشناوي : المرجع السابق ص ١٩١٨ .

بهذه المعاهدات ، فإنه مع ذلك قد برهن على جعل العزلة عن الحضارة الأوروبية هى السبب الرئيسى فيما حاق بالمشرق العربى من تخلف وجمود ، كما سار فى نفس الإتجاه الدكتور" محمود غرابية " حين حاول أن يلقى بتبعة التخلف والجمود على العرب أنفسهم وأنهم أرادوا أن يلقوا تبعة كسلهم وسلبيتهم على العثمانيين فابتعدوا عن مجرى الأحداث السياسيةوالعسكرية وفقدوا اهتمامهم بها ولم يشاركوا فى أحدثها(١)، حيث أكد بهذا التفسير كذلك أن عدم الاحتكاكات بحضارة الغرب سواء أكان بسبب العثمانيين أم بسبب العرب يعد عاملاً أساسياً فى تخلف وجمود .

العزلة طبيعة تركية :

يتفق كثيرون من المفكرين على أن الاستعلاء والعزلة تعد من السمات البارزة فى تكوين الشخصية التركية ، ويرجع البعض ذلك إلى أن نظرتهم إلى أصولهم الجنسية كانت نظرة تنم عن أنهم أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى (٢) ، على أننا نغلّب عاملين آخرين فى تفسير هذه السمة أولهما الطبيعة العسكرية التى التزم بها التركى وفضّلها على غيرها من المهن على اعتبار أنها طبيعة لازمة للإنسان القوى ، وكان تكريم الاسلام للجهاد والمجاهدين من أهم العوامل التى دفعت الأتراك فى وسط آسيا لاعتناقه وذلك لاتفاقه فى هذا الجانب مع طبيعتهم فى الميل إلىالفروسية التى كانت تعرف بنظام الفتوة أو العيارين وعرفت فى العصر العثمانى باسم الآخيين ، وقد ظلت هذه الطبيعة سمة بارزة للتركى منذ ظهوره على الساحة السياسية فى العصر العباسى ثم فى دولة السلاجقة .

(١) د . عبد الكريم غرابية : تاريخ العرب الحديث ص ٢٥ .
(٢) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ص ٣٢١.

وازداد بروز هذه السمة . التى يتسم أصحابها بالاستعلاء والجهل أحياناً . لدى الترك فىالعصرالعثمانى حين استطاعوا أن يؤسسوا إمبراطورية قوية مهابة الجانب مترامية الأطراف فى الشرق والغرب (١) ، فالتزموا بالعزلة فى ثكناتهم العسكرية دون الاختلاط بالشعوب المفتوحة وبخاصة أنهم كانوا يدركون أيضاً قلة عددهم عن الشعوب المحيطة بهم ، ولذلك بدت ثكناتهم العسكرية فى قلاع تعلو مناطق وجودهم لالكونها فى موقع عسكرى فقط ولكن لاتساقها مع طبيعتهم الذاتية .

أما العامل الآخر فهو عامل حضارى حيث كان التركى بطبيعته المتنقلة لا يحتفظ برصيد حضارى يوازى ذلك الرصيد الذى كان للشعوب المفتوحة . وبغض النظر عن تأثر الأتراك العثمانيين بالحضارتين الإسلامية والبيزنطية وبشكل أسهم فى وجود حضارة خليطة ميزتهم عن كلتا الحضارتين فإنهم لم يأخذوا بأسباب الحضارة إلا بعد استقرارهم السياسى . وعلى الرغم من أن الحضارة الإسلامية كانت قد أصيبت بالجمود منذ الهجوم المغولى على بغداد وكذلك أفول الحضارة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية إلا أن الأتراك العثمانيين قد استمروا فترة ليست بالقصيرة فى الأخذ عن هاتين الحضارتين وفى نفس الوقت كان التركى هو الفاتح المنتصر القوى فإن هذه العوامل- مع طبيعته العسكرية- قد دفعته لاعتزال الاحتكاك بهذه الشعوب (٢) .

(١) د . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ص ٤٩ .
(٢) يراعى أن ذكر التركى كان سابقاً لانصهار هذا العنصر فى عناصر المجاهدين المسلمين التى صاحبت المرحلة الأولى فى بناء الدولة العثمانية .

أما العزلة التى اتجه المؤرخون إلى إدانة الحكم العثمانى بسببها فهى العزلة التى فرضها العثمانيون على المشرق العربى والتى وصفها البعض بأنها لم تكن عزلة سياسية أو اقتصادية فقط بل كانت عزل حضارية أيضاً (١) .

وقبل أن ندلل على أن العثمانيين لم يفرضوا العزلة على المشرق العربى فإننا نوضح بداية أن ذلك ليس تسليماً منا بأن الابتعاد عن الحضارة الأوروبية مهما كانت أسبابه يعد العامل الرئيسى فىتخلف وجمود الشرق العربى منذ العصر العثمانى بل إن ذلك التخلف والجمود فى رأينا يرجع فى المقام الأول إلى تكوين إتجاه إسلامى عام كان وما زال يرفض الانفتاح الكامل على الحضارة الغربية لما يحسه فى نظرة الغرب المتعالية والمشوبة بالحقد والكره إلى الشرق العربى الإسلامى والتى يتهم كثيرون من المفكرين الشرقيين بسببها دعاة الاتجاه إلى الغرب من مفكريه بالانهزامية والاستسلامية ، وقد أسهمت عديد من العوامل فى تكوين هذا الاحساس لعل من أهمها ذلك الرصيد التاريخى الذى خلفته الحروب الصليبية التى أشعلت جذوة الصراع الدينى بين الشرق والغرب والتى استمرت تأخذ أشكالاً عدة عبر مراحل التاريخ الحديث (٢) . وتبع ذلك اتجاه المفكرين الغربيين إلى التقليل من شأن الحضارة الإسلامية وإنكار استفادتهم منها بل وإرجاع الجوانب المضيئة فيها إلى حضارات أوروبية قديمة كاليونانية والرومانية.

العثمانيون لم يفرضوا العزلة على المشرق العربى

سعت الدولة العثمانية منذ بداية فتحها للمشرق العربى إلى ربطه بالعالم الخارجى وبأوروبا على وجه الخصوص ، فقد عقد السلطان "سليم الأول" معاهدة مع

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ، ص١٤١ ، د . رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص ٧٣٤ .

جمهورية البندقية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م بقصدإحداث تبادل تجارى بينها وبين مماليك مصر ولكونهما قد أضيرا معاً بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح (١) وفى سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م عقد "السلطان سليمان القانونى" معاهدة مع فرنسا حصلت فرنسا بمقتضاها على امتيازات اقتصادية متعددة داخل الولايات المتحدة العثمانية وهى الامتيازات التى طالبت دول أوروبية أخرى أن تحصل على مثلها وفى مقدمتها انجلترا واستجابت الدولة العثمانية لهذه المطالب وعقدت معاهدة مماثلة مع الإنجليز (٢).

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت فى فرض حظر كامل على السفن الأوروبية من دخول البحر الأحمر بسبب نزعتها الدينية المعادية للملسمين والمقدسات الإسلامية ،وأن تلك السياسة قد أدت إلى حدوث ركود اقتصادى لموانىء البحر الأحمر ،إلا أنها بعد أن استقرت أوضاعها فى المشرق العربى فى أواخر القرن العاشر والحادى عشر الهجريين السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادى قد فتحت الباب لتنافس شركات تجارية غربية كشركة الهند الشرقية البريطانية والشركة الهولندية لإقامة الوكالات التجارية فى أحد موانىء البحر الأحمر، وهو ميناء " المخا" حيث تنزل البضائع والتوابل والأقمشة الهندية (٣).

وإلى جانب ذلك فقد عادت الحيوية إلى عديد من الطرق التجارية القديمة بين بلدان المشرق العربى ، فضلاً عن تدعيم الدولةالعثمانية لحركة التبادل التجارى بين

(١) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٨٢٧ .
(١) المرجع السابق ص ٨٢٧ .
3) (marston , t.e : s imperial role in thered sea area, p . : 3 marco , yemem and western world since 11511. 1193 . P .

الموانىء الإفريقية سواكن ومصوع وبلاد الحبشة وبين ميناء جدة وبقية المدن الحجازية المقدسة (١) .

إيجابيات عزلة المشرق العربى عن الغرب الأوروبى :

على الرغم من حرص الدولة العثمانية على دوام تدعيم العلاقات الاقتصادية بين الشرق الإسلامى وبين أوروبا إلا أن سياستها تجاه تحركات الدول الغربية العسكرية تجاه الشرق والتى ظهرت بطابع دينى عدائى قد اتسمت بالحذر والحيطة الكاملة ، واستطاعت هذه السياسة أن توفر عوامل الأمن والأمان للشرق العربى ، ومع أن سياسة الحذر هذه كان لها تأثيرها غير المباشر على عدم السماح بالتبادل الثقافى بين الشرق والغرب إلا أن العرب أنفسهم لم يبد لديهم قبول للأخذ عن الثقافة الغربية لاستقرار حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية أن تسعى لإحداث تغييرات فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى الدور الدفاعى الذى كان تتولاه ضد القوى الأوروبية وعلى جميع الجبهات سواء على الساحة الأوروبية أم فى الهجمات الأوروبية على البحار والموانىء الإسلامية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وفى منطقة الخليج العربى ، فقد تعرضت هذه الدولة لحروب من قبل الروس فى الشمال والأوربيين فىالغرب إلى جانب دور الدول الأوروبية الاستعمارى فى البحر الأحمر والخليج العربى . وقد استوجب هذا الدور إنفاق الدولة لأموال طائلة فىالحروب المتوالية لم تمهلها للقيام بحركة إصلاح شاملة فى الداخل . كما أن الدول الأوروبية قداستغلت انشغال الدولة بهذه الحروب أو ضعفها بسببها وشجعت أصحاب الأطماع الشخصية من حكام

(٣) د . جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ص ٢٤٣ .

obeikandl.com

الولايات العثمانية على إعلان التمرد والعصيان على الحكومة العثمانية الأمر الذى أدى إلى مزيد من إضعافها بدلاً من مساعدة هذه الولايات لها فى مسئولية الدفاع المتواصلة ضد الأطماع الغربية .

ويأتى فى المقام الثانى ضعف الرصيد الحضارى العثمانى بسبب هذه العوامل وبالتالى بدا نظام الحكم العثمانى عاجزاً وخالياً من الخطط الإصلاحية لإحداث تغييرات فى نظام الدولة أو فى أحوالها الداخلية .

وإذا كان لنا أن نسلم بمسئولية الدولة العثمانية فى تدعيم النظام الإقطاعى فى كل ولاياتها فذلك يرجع إلى أنه كان النظام السائد الذى قام عليه نظامها منذ بداية تكوينها السياسى ، لكن الضعف الذى ألم بالحركة التجارية والحرفية (الصناعية) كان بفعل عوامل أخرى سابقة للوجود العثمانى فى المشرق العربى حيث كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول طريق التجارة إليه منذ ٩٠٤هـ/١٤٩٨م وما ترتب عليه من إهمال لطرق التجارة القديمة عبر الشرق العربى هو السبب الرئيسى فى ضعف النشاط التجارى والحرفى وبالتالى ضعف الطبقة الاجتماعية التى كانت تعتمد عليه اعتماداً رئيسياً .

ومن جانب آخر فإننا لو جارينا الذين يتباكون على الإبتعاد عن أوروبا استعماراً وحضارة ويرجعون إلى ذلك كل أسباب ما أصابنا من تخلف وجمود ويلقون بالتبعة فى هذا على العثمانيين دون أن يذكروا لهم فضل الحماية من هذه الهجمة الصليبية الاستعمارية الشرسة وحفاظهم على استمرار مقومات الترابط والوحدة بين أقطار الوطن العربى بعد أن ظل إبان الحكم العثمانى وطناً واحداً دون حواجز ، فإن لنا أن نعرض

العديد من نماذج الشعوب التى تعاملت مع الأوربيين . ولم يجدوا من يفرض عليهم عزلة منذ مطلع العصور الحديثة وطوال الوجود العثمانى " المذموم " فى المشرق العربى .

وأول هذه النماذج القارة الأفريقية التى تعرضت . طوال أربعة قرون . لأسوأ صورة من صور الإستغلال والقهر من قبل الأوروبيين فى العصر الحديث فقد بدأت البرتغال بافتتاح صفحة الرق فى هذه القارة . وقد ربط الكتاب الغربيون بين هذا الإتجاه وبين الدافع الدينى بصورة تبدو إنسانية ، حيث بدأت هذه التجارة حين استطاع أحد الملاحين البرتغاليين أن يأسر عدداً من المواطنين الإفريقيين ثم اصطحبهم معه لتعليمهم مبادىء الديانة المسيحية وحتى يعودوا لبلادهم ليسهموا فى نشر الدين المسيحى بين ذويهم من الأفارقة . ولكن سرعان ما تحولت المسألة إلى شراء الأفارقة أو خطفهم ثم بيعهم للعمل فى البرتغال ، ثم اتسعت هذه المسألة على كل الساحة الأوروبية ، وأصبحت لشبونة فى البداية من أكبر العواصم الممتلئة بأسواق النخاسة إلى أن نافستها غيرها من العواصم الأوروبية(١) .

وقبل أن تتوغل الدول الأوروبية داخل القارة الإفريقية وتركز وجودها فى مراكز ساحلية بلغ عدد ما وصل إلى المتلكات البريطانية من الرقيق الأفارقة فى ست سنوات فقط (١٠٨٩-١٠٩٥هـ/١٦٨٠-١٦٨٦م) ما يقرب من مليونين ونصف ، مع العلم بأن هذا العدد هو عدد ماوصل حياً وهو أقل من نصف العدد الذى جمعه قبل الترحيل نظراً لأنهم كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع الرعاية حيث كانوا يجمعون فى (زرايب) وكان أغلبهم يموتون قبل وأثناء رحلات ترحيلهم فيلقى بمن يموت منهم فى البحار ،وقدر البعض عدد

(١) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٩ .

ما وصل حيا من الرقيق الأفارقة إلى المستعمرات الأوروبية فى قرن واحد بـ٤٠ مليوناً فى حين يقدره البعض الآخر بمالايقل عن مائة مليون (١) .

وحين أرادت بعض الشركات الأوروبية استثمار المنتجات الإفريقية داخل القارة الإفريقية استولت على العديد من الأراضى وأقامت فوقها مستعمرات كاملة للأوربيين طردت منها الأفارقة أو حولتهم إلى رقيق ، ونتج عن هذه السياسة ما يسمى بالإستعمار الاستيطانى الموجود فى جنوبى افريقيا الآن فضلاً عن اتباع سياسة التفرقة العنصرية التى ما زالت تعانى منها القارة الإفريقية حتى الآن .

أما فى القارة الآسيوية فقدسارع الاستعمار الأوروبى بالقضاء على الإمبراطورية الإسلامية فى الهند ثم تقسيمها إلى مراكز نفوذ بين البلدان الأوروبية، كما استطاع الهولنديون الاستيلاء على جزر الهند الشرقية فى أغلبها ، ولعل من أسوأ الصور البارزة للإستعمار الأوروبى فى آسيا التنافس الذى دار بين الدول الأوروبية منذ القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى على إخضاع الصين وتحويل عدد كبير من الصينيين إلى رقيق كما قامت الشركات البريطانية ، مدعومة من حكومتها ، بالترويج لتجارة الأفيون واستطاعت أن تستولى بهذه السموم على أغلب موارد الشعب الصينى وإضعافه اقتصادياً إلى جانب تأثير هذه السموم ، وتمكنت بريطانيا بهذا من السيطرة على الصين ، ومعها الدول الاستعمارية ، حتى الربع الأول من القرن العشرين حين نجح " تيان تسن " (ت ١٩٢٥م) " وشيان كاى شيك " من إحداث ثورة شاملة حررت الصين من الاستعمار الغربى وأسهمت فى انضمامه إلى المعسكر الشيوعى الشرقى (٢) .

(١) د . شوقى الجمل :المرجع السابق ص ١٤١ . وزرايب هى أماكن تواجد المواشى
(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص١٨ وما بعدها .

وفى القارة الأمريكية الشمالية تمكن المستعمرون الإنجليز والفرنسيون من استيطانها بعد أن تمكنوا من القضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وأصبح هؤلاء السكان من أصحاب البلاد أقلية ليس لها نصيب فى الإشتراك فى إدارة بلادهم أو حتى المشاركة فى تحديد مصير أنفسهم حتى تاريخنا المعاصر(١)

ولاشك أن هذه الأمثلة المحدودة تؤكد أن الاستعمار الغربى قد استخدم أساليب شرسة لا تتسم بالطابع الإنسانى فى علاقته مع الشعوب الأخرى،ولو قدرله أن يتمكن من استعمار الشرق العربى فى هذه الهجمة فإن نصيبه كان سيصبح على الأقل مماثلاُ لنصيب هذه الشعوب وإن كان سيزيد عليها بحكم الرصيد التاريخى من العداء الدينى الذى كان ملحوظاً فى موقف الاستعمار من الشرق الإسلامى فى بداية هذه الموجة الإستعمارية وإذا كانت أوروبا المعاصرة قد بدت فى أعين الدارسين الشرقيين واحة من الأمان والرخاء والإنسانية والرقى العلمى فإن هذه المظاهر لم تبد جلية إلا فى أعقاب الحروب الدامية العالمية الأولى والثانية التى كانت تعبر عن صراع المطامع بين بلدانها على الإستمرار فى قهر الشعوب الأخرى . كما أن هذه المظاهر بكل ما يحيطها من تقدم وتمدين ترجع فى أساسها إلى دماء الشعوب الأخرى التى ما زالت تعانى من جراء سياسة الاستغلال والقهر هذه وإن كانت قد تلاشت بأسلوبها القديم فى الغالب فإنها مستمرة وبأساليب جديدة يأتى فى مقدمتها الاستعمار الاقتصادى والفكرى ، وكذلك إغراق الشعوب المطحونة فى مشاكل متعددة حتى تبعد بينها وبين سياسة التنمية كى تظل فى إطار التبعية والاستغلال . وبالتالى يمكن القول بأن المظاهر الإنسانية المفرطة فى بعض الأحيان التى تظهر فى أوروبا المعاصرة هى ردفعل لسياسة طويلة من اللاإنسانية ، كما أنها

(١) د . رأفت غنيمي الشيخ : أمريكا والعلاقات الدولية ص ٢٧ .

إنسانية مبتورة لاقتصارها على مساندة جنس دون آخر وخضوعها لقضية المصلحة أكثر من التزامها بمفهوم ثابت للقيم الأخلاقية .

إن كثيراً من الدول التى استطاعت أن تبنى نفسها من الداخل قد اتبعت سياسة العزلة عن السياسة الأوروبية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى والصين وغيرها ، وقدلايستطيع المشرق العربى أن يفرض عزلة جديدة على نفسه بحكم أنه بموقعه وخيراته على الأقل مازال مستهدفاً من قبل الإستعمار الأوروبى بشكله الحديث. ولو أنه نجح فى هذه السياسة ونجا من فرض المشكلات الأوروبية فإنه يستطيع فى غضون مدة زمنية أن يشهد تنمية أوسع مما هو عليه الآن ، لكن الاستعمار الغربى لن يتركه ، ولعلنا نناجى العصر العثمانى مرة أخرى حيث أصبحت العزلة المذمومة فى عهده مطلباً غالياً وبعيد المنال فى عصرنا الحالى ، لكن النزعة الإنهزامية لدى مفكرينا تجاه الحضارة الغربية وسلسلة الصراعات المحلية ، ومحاولة كثير من الأنظمة السياسية الغربية كسب ود العرب بتطبيق قوالب سياسية لا تتفق فى إطارها مع مصالح شعوب المنطقة ولا تناسب واقعها وكذلك وجود استعمار استيطانى غاصب ممثلا في إسرائيل ، كل هذا يجعل من المسعى إلى عزلة جديدة للتنمية والبناء أمراً صعب التحقيق .